أهمية علم النَّحو في تفسير القرآن العظيم

The importance of grammar in interpreting the Great Qur'an

م.م. أمير فتاح عباس أمين

Asst.Lect. Amir Fattah Abbas Amin

دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

Department of Religious Education and Islamic Studies

E-mail: amirmaktaba@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: النَّحو، اللسان العربي، علم تفسير القرآن، أصول النحو.

Keywords: Grammar, the Arabic language, the science of interpreting the Qur'an, the principles of grammar, the science of morphology

الملخص

علم النَّحو العربيّ: هو عِلْمٌ يُعرف به حُكم أحوال أواخِر الكَلِم من حيث الإعراب والبناء، يجعل للعربي لسانًا مبينًا يصبح به فارسًا من فرسان الحديث، ويغدو قادرًا على فهم الأغراض التي ترمي إليها الألفاظ، ولولاه لبقيت الكلمات مغلقةً على معانيها. ولأنَّ النَّحو متعلِّق بكتاب الله تعالى فهو من أجلِّ العلوم، وأعلاها قدرًا، وقد كانت الدَّواعي إلى نشـــوء علم النَّحو قويَّة؛ لئلَّا يدخل اللَّحن في لغة القرآن، بعد دخول الأعاجم في الإسلام.

جاء هذا البحث ليبيّن أهمية علم النَّحو في إقامة ألسن العرب في هذا الزمن الذي أهملت في اللغة العربية كثيرًا ، وراصدًا جهود علماء النَّحو التي قدَّموها خدمة للعربية وللتَّنزيل الحكيم.

Abstract

The science of Arabic grammar is a scale by which the superiority of speech is known from its deficiency. It gives the Arab a clear language by which he becomes a knight of the hadith, and becomes able to understand the purposes to which words are intended. Without it, words would have remained closed to their meanings. Because grammar is related to the Book of God Almighty, it is one of the sciences and the highest in value. The reasons for the emergence of the science of grammar were strong. So that the melody does not enter the language of the Qur'an, after the foreigners entered Islam.

This research came to show the importance of the science of grammar and morphology in establishing the Arabic tongues in this era, which was greatly neglected in the Arabic language, and to monitor the efforts of grammar scholars that they provided in the service of Arabic and the wise revelation.

المقدّمة

الحمدُ لله الذي جعل اللِّســان العربيَّ أداة كتابه العزيز، وجعله حافلًا بالنَّفع والقول الوجيز، سـبحانه هو القائل في محكم التَّنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسـف:2]، أنزله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:195]، وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم على نبيِّه محمَّدٍ المبلِّغ رسالَته للعالَمين، وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الميامين.

وارتكازًا على نزول القرآن الكريم بلسان العرب، فإن تعلُّم لسانها الذي هو (النَّحو) أوَّل الأدوات الضَّروريَّات لقارئ القرآن؛ إذ إنَّ المعنى يتغيَّر ويختلف باختلاف الإعراب، ومعنى إعراب القرآن تعرُّف ما فيه من البدائع العربيَّة والدَّقائق اللُّغوية والأسرار البلاغيَّة، وليس مجرَّد الإعراب المصطلح عليه عند أئمَّة النَّحويّين.

ولأنَّ علم النَّحو متعلِّق بكتاب الله تعالى فهو إذًا من أجلِّ العلوم وأشرفها منزلة، وأعلاها قدرًا، وأسماها مكانة.

والنَّحو العربيُّ ميزانٌ يُعرف به صحيح الكلام من سقيمه، وهو علم يجعل لك لسانًا مبينًا فتُصبح واحدًا من فرسان الحديث، وتغدو قادرًا على فهم الأغراض التي ترمي إليها الألفاظ ولولاه لبقيت الكلمات مغلقةً على معانيها.

لقد كانت الدَّواعي إلى نشوء علم النَّحو قويَّة؛ لئلَّا يدخل اللَّحن في لغة القرآن، ولا سيَّما وقد دخل غير العرب في الإسلام، مما كان يخشى من دور في تأثُّر العرب بالعُجمة، فنشأت العلوم التي تحفظ لغةَ العرب، وتحفظ كتابَهم الإلهيَّ، الذي نزل بلغتهم، وخاصَّة علم النَّحو؛ مما يدلُّ على **أهمية البحث** في هذا الموضوع.

كان من رحمة الله تعالى بهذه الأُمَّة أن حفظ لها كتابها، وقيَّض لها العلماء الذابّين عن حِمى الشَّريعة الإسلاميَّة، الحافظين لعلوم الإسلام، ولا سيَّما علماء النَّحو منهم، الذين حفظوا علينا لغتنا حتى لا نكون في يوم من الأيَّام غرباءَ عنها، أو تكون هي في المستقبل ضيفًا ثقيلًا على ألسنتنا، العلم الذي صار به كتابًا أعجزتْ بلاغته أُمَّةَ البلاغة والبيان، وأقرَّتْ بعد التَّفكير والتَّقدير بأنَّه تنزيل العزيز العليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:9]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: 192-195].

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى جملةٍ من الأمور الهامَّة:

إلقاء الضَّوء على نشأة علم النَّحو، ومجالِه، وتعريفِه.

بيان أهميَّة علم النَّحو، ومكانته بين العلوم الإسلامية.

رصد الجهود والإنجازات التي قدَّمها علماء اللُّغة والنَّحو في خدمة التَّنزيل الحكيم، منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا.

توجيه المتخصِّصين في تفسير القرآن الكريم إلى أهميَّة العناية بالنَّحو، وأنَّها الوسيلة المثلى لفهم معاني القرآن الكريم.

تقديم نماذج تطبيقيَّة لاختلاف النَّحويين والمفسِّرين في إعراب القرآن الكريم وتفسيره، واستخراج حِكَمِهِ وأحكامِهِ.

وانطلاقًا من مقولة ابن عطيَّة في تفسيره (المحرَّر الوجيز): إعراب القرآن أصلٌ في الشَّريعة؛ لأنَّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشَّرع (ابن عطيَّة الأندلسي، 2001م، 40/1)، فقد قمتُ بكتابة هذا البحث متعرِّضًا لعلم النَّحو والإعراب، وبيان أهميَّة معرفته لمن أراد أن يفسِّر كتاب الله تعالى، وأن يفهم معانيه، ويقوم بتعليمه لغيره، والقيام بواجب تدبُّره، مستعينًا بالله تعالى، وما توفيقي إلا بالله.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدِّمة وثلاثة مباحث وخاتمة، ففي المقدمة ذكرت قيمةَ البحث وأهميتَه، وأهدافَه وخطتَه. فأما المبحث الأول فيتحدث عن علم النَّحو، وتعريفه، وأصوله. والمبحث الثاني خصصته لبيان أهميَّة علم النَّحو في تفسير القرآن ومنزلته من بين الأنواع المختلفة من علوم القرآن، ثم يأتي المبحث الثالث بمثابة تطبيق عمليٍّ لأثر علم النَّحو في فهم معاني القرآن العظيم، وذكر الأمثلة التي توضح ذلك وتبيِّنه. وفي الخاتمة ذكرت خلاصة البحث ونتائجه.

الباحث

م.م. أمير فتاح عباس أمين

* * *

المبحث الأول

علم النَّحو، تعريفه، أصوله

تمهيد:

ذكر القرطبيُّ في مقدِّمة تفسيره الجامع لأحكام القرآن: أن ابن أبي مليكة روى فقال: قَدِمَ أعرابيٌّ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فأقرأه رجلٌ (براءةَ) فقال: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التَّوبة: 3] بجرِّ اللَّام من لفظ رسولِهِ، فقال الأعرابيُّ: أو قد برئ اللهُ من رسولِه، فإن يكن اللهُ بريئًا من رسولِه فأنا أبرأ منه.

فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابيّ، فدعاه فقال: ليس هكذا يا أعرابيُّ، قال: فكيف هي؟ قال: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [التَّوبة: 3] بضمِّ اللَّام، فقال الأعرابيُّ: وأنا واللهِ أبرأ ممَّا برئ اللهُ ورسولُه منه، فحينئذٍ أمر سيِّدنا عمر بأن لا يُقرئَ النَّاسَ إلا عالم بالنَّحو واللُّغة (القرطبي، 2006م، 43/1).

من هنا يتبيَّن أن علم النَّحو من أجلِّ العلوم وأنفعها أثرًا، به يستقيم البيان، وترتفع قيمة الإنسان؛ لأنه يعصمه من اللَّحْن، وهو ذخيرة كل متعلِّم، وعماد من يبتغي لنفسه السَّداد والرَّشاد في كلِّ العلوم التي يتعاطاها.

وقد وُضع علم النَّحو قديمًا، واجتاز مراحل تاريخيَّةً حتى نشأ واستوى على سُوقه كاملًا ناضجًا، ولا يزال يُعتنى به ويُؤلَّف فيه ويُصنَّف لما له من أثر في البيان، وفي تقويم اللِّسان، ولما له من أهميَّة في سلامة القرآن والسُّنَّة من عوادي التَّحريف واللَّحن؛ إذ هما ذخيرة المسلمين وموئل المؤمنين في الدِّين؛ لذلك كان الاشتغال بهذا العلم عملًا مبرورًا، والحفاظ عليه سعيًا مشكورًا.

يقول عبد الرَّحمن بن خلدون واصفًا علم النَّحو: «... إذ به (أي: علم النَّحو) تتبيَّن أصول المقاصد بالدَّلالة، فيُعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهِلَ أصل الإفادة» (ابن خلدون 2004م، 367/2).

مجالُ علمِ النَّحو:

النَّحو هو علم التَّركيب، فالكلمة الواحدة لا تشكِّل نحوًا، لكنَّ تركُّب الكلمات بعضها مع بعض هو النَّحو، فلمعرفة معنى كلمةٍ ما يكفي الرُّجوعُ إلى المعاجم المؤلَّفة خصِّيصًا لذلك.

وأمَّا النَّظر في مكوِّنات الكلمة واشتقاقها وكيفيَّة تكوُّنها، وماذا أضيف إليها، وماذا حُذف منها، وما هي حركاتها؟ وكيف تُضبط الكلمة الواحدة في وسطها وأولها؟ فهذا تطلبُه من علم الصَّرف (الحافظ،2010م، 9).

وأمَّا إذا جئنا بعدَّة كلمات وجعلناها جملةً فحينئذٍ تدخل في النَّحو؛ لأنَّه لا تظهر علامات الإعراب إلَّا من خلال تركُّب الكلام بعضه مع بعض، فإذا تركَّب الكلام ضُبط فظهرت عليه علامات

الإعراب والبناء فأصبح نحوًا. (الحافظ،2010م، 9).

الكلمة في اللِّسان العربيّ لها – من بين ما لها من معانٍ – معنى وظيفيٌّ، وهو ما تؤدّيه الكلمة أثناء تركيبها مع غيرها من (وظيفة) من أجلها استُخدمت في هذا التَّركيب، هي كونها (حدثًا) صادرًا عن ذات، أو (فاعلًا) صدر عنه الحدث، أو (مفعولًا) وقع عليه الحدث، أو (تمييزًا) لمُبهم قبلها، أو (استثناء) من حكم سابق، أو (شرطًا) لحكم لاحق، أو غير ذلك من معانٍ وظيفيَّة لا تفهم إلا عند التَّركيب والعلم الذي يتكفَّل بهذه المعاني التي سمِّيت (المعاني النَّحوية) هو علم النَّحو.(جمال الدِّين، 1980م، 8–9؛ درويش، 2008م، 39 بتصرف).

والنَّحو لا يتخذ لمعانيه مبانيَ من أيّ نوع إلا ما يقدِّمه له الصَّرف من المباني، والصَّرف يستعين بالأصوات أيضًا، ثم يقدِّم العناصر الصَّوتية إلى النَّحو باعتبارها عناصر صرفيَّةً.(حسان، 1973م 178؛ درويش، 2008م، 39 بتصرف).

وللُّغة العربيَّة الفصحى أنظمة لغويَّة هي: النِّظام الصَّوتي، والنِّظام الصَّرفي، والنِّظام النَّحوي، ولكل نظام مبانيه ومعانيه، وما يهمُّنا هو النِّظام النَّحوي.(درويش،2008م، 39).

تعريف علم النَّحو لغةً واصطلاحًا:

أصول النَّحو هي علم يبحث فيه عن أدلة النَّحو الإجماليَّة من حيث هي أدلَّته، وكيفيَّة الاستدلال بها وحال المستدلِّ.(العتيق، د. ت،1).

النَّحو لغةً: مصدر نحا الشَّيء ينحوه وينحاه نحوًا، أي: قصده قصدًا، قال ابن دريد (ت321هـ): النَّحو القصد، نحوت الشَّيء أنحوه نحوًا إذا قصدتَه، وكلُّ شيء أممتَه فقد نحوتَه، ومنه اشتقاق النَّحو في الكلام كأنه قصد الصَّواب (ابن دريد، د. ت، 197/2)، ومثله في لسان العرب (ابن منظور، د. ت، 4371؛ جمال الدِّين، 1980م، 24).

النَّحو اصطلاحًا: هو علم بأصول يُعرف بها أحوال أواخر الكلم العربيَّة إعرابًا وبناءً، وكيفيَّة تركيب بعضها مع بعض (العتيق، د. ت،2؛ الشَّريف الجرجاني،1405هـ، 308؛ ابن جنِّي، د. ت، 34/1).

والتَّركيب إما بنسبةٍ إسناديَّة فجملة، أو غير إسناديَّة فتقييديٌّ، أو بلا نسبة فمزجيٌّ.(الإستانبولي، د. ت،10).

إن (علم النَّحو) –كما يقول صاحب توضيح المقاصد نقلًا عن ابن عصفور في كتابه (المقرَّب) – مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها (المرادي، 2008م، 255/1).

وحكم تعلُّمه فرض كفاية، وقيل: فرض عين على كلِّ من أراد علم تفسير القرآن العظيم.(ابن قاسم، 1988م، ص7).

أوَّل من وضع أصول علم النَّحو:

يقول الأستاذ صلاح الدِّين الزُّعبلاويُّ في كتابه (دراسات في النَّحو): «يبدو عند التَّحقيق أن أوَّل من وضع أصول النَّحو وقياسه هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميُّ؛ ذلك أنَّ سيبويه قد سمَّى في كتابه مَن روى عنهم أصول النَّحو من الأئمة، ولم يتجاوز الحضرميَّ إلى إمام قبله، فالحضرميُّ على هذا هو رأس البصريَّة».(الزّعبلاوي، دمشق، د. ت، 5).

قال ابن سلَّام: «عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرميُّ كان أوَّل من بَعَجَ النَّحو، ومدَّ القياس وشرح العِلل» (الزّبيدي، د.ت، 25؛ القفطيّ، 1401هـ، 2/ 106؛ الزِّركلي، 2002 م، 71/4).

وجاء في نزهة الألبَّاء ما يؤكِّد «أنَّ الحضرميَّ هو أوَّل من علَّل النَّحو». (ابن الأنباري، د.ت، 23).

يذهب بعض الباحثين إلى أنَّ أبا الأسود الدُّؤليَّ هو أوَّل من جدَّد هذا العلم الذي أبلتْه الأيَّام، وقد كان قديمًا، وذلك بإرشادٍ من الإمام عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.(الطنطاوي، د.ت، 20–23).

وأرى أن الرَّاجح بين القولين أن أبا الأسود الدُّؤليَّ (ت: 69هـ) هو أوَّل من تكلَّم في علم النَّحو؛ حيث إنَّه أسبق في الزَّمن من عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرميّ (ت: 117هـ) ، ويمكن التَّوفيق بين المذهبين بأنَّ أبا الأسود الدُّؤليَّ تكلَّم في أصول النَّحو، وبيَّن نشأته على يد العرب، وأنَّه علمٌ قديمٌ موجودٌ، بعدما طلب سيدنا عليٌّ منه أن يدوِّنه، ثم جاء الحضرميُّ، وفصَّل في أحكامه وأظهر عِلَله وقياسَه.

ومن مظاهر احتياج دارس النَّحو إلى علم الصَّرف، أن الموقع الإعرابي لبعض الكلمات، لا يمكن معرفته إلَّا إذا عرفنا الصِّيغ الصَّرفية للألفاظ.(الحافظ،2010م، 10).

ولمَّا كانت **الخُطوة الأولى** لفهم اللِّسان العربيّ، والتَّنزيل الحكيم هي علم الصَّرف وعلم النَّحو معًا، دلَّ ذلك أوَّلًا على شرف هذا العلم، وثانيًا على أهميَّة الإحاطة به، والغوص في أعماقه، من أجل فهم كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهذا موضوع المبحث الثَّاني من بحثنا.

* * *

المبحث الثاني

أهميَّة علم النَّحو في تفسير القرآن

تمهيد:

أجمع علماء الشَّريعة وفقهاؤها على أن تعلُّم العربيَّة، والتَّعمُّق في أسرارها شرط أساسيٌّ لكلِّ باحث في أيِّ علم شرعيٍّ، وقد نبَّه المفسِّرون في مقدِّمات تفاسيرهم إلى ذلك (ابن جُزيّ،1995م، 12/1؛ زبن، د.ت، 19 بتصرّف).

يعد علم النَّحو أداةً بارزةً في فهم القارئ للآيات القرآنيَّة، ووسيلةً التي تساعده على شرح وإيضاح مدلولات النَّصِّ القرآنيّ، وذلك بعد أن اختلطت الألسنة وفسدت، وتعدَّدت الشُّعوب وتمايزت لهجاتها، فصار من الصَّعب تفسير القرآن وفهمه إلَّا بعد التَّمكُّن من علوم اللُّغة كافَّة بما فيها علم النَّحو، وبالتَّالي امتلاك القدرة على تفسير القرآن تفسيرًا صحيحًا بالاعتماد على قواعد لغويَّة صائبة.(ابن جُزيّ، 1995م، 12/1؛ زبن، د.ت، 19).

منزلة علم النَّحو من بين الأنواع المختلفة من علوم القرآن:

من أهم الأمور التي يجب على من أراد تفسير القرآن أن يتعلَّمها هي المعرفة الكافية والشَّاملة لقواعد علم النَّحو وأسسه؛ إذ بها يتمكَّن من فهم الآيات والتَّمكُّن من تفسيرها وتحليلها والوصول إلى معانيها ودَلالاتها على أتمّ وجهٍ، ويساعد علمُ النَّحو بقواعده وأبوابه القارئَ على تجنُّب الأخطاء قدر الإمكان، والبُعد عن اللَّحن في القراءة والتَّفسير على قدر المُستطاع.

لم يُعرَف علم النَّحو عند العرب قبل الإسلام، لِمَا تميَّزوا به من الفصاحة والبلاغة، وجودة قرائحهم ونطقهم السَّليم بالفطرة، وذلك نتيجة نشوء اللُّغة العربيَّة في أحضان الجزيرة العربيَّة، والذي أدَّى بدَوره إلى جَبْلهم على قواعد اللُّغة العربيَّة السَّليمة، ممَّا ساعدهم على تجنُّب الأخطاء النَّحويَّة اللُّغويَّة، وأبعدهم عن اللَّحن في فهمهم للنَّصِّ القرآنيّ.

علم النَّحو هو علم المشاركة والتَّطبيق؛ لأنَّه علم اللِّسان العربيّ، ولا قيمة لمعرفة القاعدة دون تطبيقٍ لها وإنزالها على محلِّها من الخطاب سواءً كان نصُّ الخطاب كلام ربِّنا سبحانه في القرآن الكريم أو كلام النَّبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الشَّريف.

كما يشكِّل علمُ النَّحو مُرتكزًا أساسيًّا لمن أراد تفسير القرآن وفهمه فهمًا صحيحًا؛ إذ إنَّ بمعرفة إعراب الكلمات وموقعها في الجملة يتمكَّن القارئ من فهم الآيات القرآنيَّة فهمًا صحيحًا سليمًا، ولا شكَّ في أنَّ علم النَّحو مهمٌّ في التَّمييز بين معاني الكلمات ودَلالاتها المختلفة باعتبار تغيُّر حركاتها ومواقعها الإعرابيَّة.(الصُّميدعيّ، د.ت، 5 بتصرّف).

نزل القرآن الكريم بلسان العرب، فكان تعلُّم لسانها الذي هو النَّحو من آكد الضَّروريَّات للمفسِّر؛ لأنَّ المعنى يتغيَّر ويختلف باختلاف الإعراب، روي عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(أَعْرِبُوا القُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ).(أورده السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير، ورمز إلى ضعفه، وقال المناوي: قال الحاكم439/2: صحيح عند جماعة، وردَّه الذَّهبيُّ، وقال: مجمعٌ على ضعفه، وتبعه العراقيُّ فقال: سندُه ضعيفٌ. وأخرجه أبو عبيد في (فضائل القرآن) حديث (318)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، 573/2].

معنى إعرابه، كما قال المناوي في فيض القدير: أي: تعرَّفوا ما فيه من البدائع العربيَّة ودقائقها وأسرارها، وليس المراد الإعراب المصطلح عليه عند النُّحاة؛ لأن القراءة مع اللَّحن ليست قراءة، ولا ثواب له فيها، قال: والتمسوا غرائبه: أي: ألفاظه التي يحتاج البحث عنها في اللُّغة.(حقِّي،2004م، 264/2).

وعن عمر رضي الله عنه قال: (تَعَلَّمُوا السُّنَّةَ وَالفَرَائِضَ وَاللَّحْنَ كَمَا تَعَلَّمُونَ القُرْآنَ)، والمعنى: تعلَّموا الغريب والنَّحو؛ لأن في ذلك علم غريب القرآن ومعانيه، ومعاني الحديث والسُّنَّة، ومن لم يعرفه لم يعرف أكثر كتاب الله ولم يُقِمْهُ.(الدِّرويش، 1999م، 5/1).

وممَّا هو جدير بالذِّكر أنَّ لألفاظ القرآن الكريم دَلالات مختلفة من شأنها التَّأثير في معنى الكلمة، ومن هنا تأتي الفائدة الكبرى لعلم النَّحو؛ إذ إن لها أثرًا واضحًا على إمكانيَّة تحديد الدَّلالة المُرادة من اللَّفظة، وإلَّا فإنَّ اللَّبس يتمكَّن من القارئ، أمَّا إذا كان متعلِّمًا للنَّحو دارسًا له، فإنَّه يستطيع بمعرفته تلك أن يُتقن تفسير القرآن أفضل إتقان.

ومن هنا كان على النَّاظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النَّظر في اللُّغة العربيَّة ومعرفة الإعراب الذي هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ولا يخفى أن جانب الإعراب من أهم الجوانب التي يجب أن يلاحظها العالم والفقيه والمحدِّث؛ لأنَّ المعنى يتغيَّر ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بدَّ من اعتباره.(الشَّوا، 1995م، 1؛ الدِّرويش، 1999م، 6/1-7).

ونذكر آيتينِ من كتاب الله، لا يشعر بجمالهما وبلاغتهما وفصاحتهما إلَّا من كان ذا علمٍ بعلوم العربيَّة. كما يتبيَّن من خلالهما أهميَّة علم النَّحو في فهم معاني آيات القرآن العظيم:

- **الآية الأولى** (رضا، 1990 م، 24/1): يقول الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7]

وذلك أنه قد حُكي أنَّ الأصمعيَّ رحمه الله مرَّ على جارية، وهي تنشد:

أســـتـغـفـرُ الله لـذنـبـي كـلِّـه قـتـلـت إنســـانًـا بـغـيـرِ حـلِّـهِ
مـثـل غـزال نـاعـم فـي دلِّـه انـتصَـفَ الـلَّـيـلُ ولـم أُصـلِّـهِ

تريد: أنها قتلت نفسَها بعدم فعل الطَّاعات؛ حيث انتصف اللَّيل ولم تقم بين يدي الله ﷻ .

فقال لها: قاتَلَك الله، ما أفصحَكِ؟

فقالت: ويحك، أَوَ يُعَدُّ هذا فصاحة مع قول الله عز وجل :﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؟ فقد جمع سبحانه في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين. فالأمران هما: أرضعيه، وألقيه. والنَّهيان: لا تخافي، ولا تحزني. والخبران هما: وأوحينا، فإذا خفت عليه، والبشارتان هما: رادُّوه، وجاعلوه.

– أما **الآية الثانية**، فهي قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ [البقرة:222]؛ ففي هذه الآية الفعلان (يَطْهُرْنَ، وتطَهَّرْن)، وهما مختلفا الأصل والمعنى:

فالأول منهما يَطْهُرْنَ، مأخوذ من الطُّهْر، والثَّاني تطَهَّرْن، مأخوذ من التَّطهُّر، يقال: طَهُرت المرأة، إذا انقطع دم حيضها، فهو فعل طبعي يقوم بنفسه، ويقال: تطهَّرت المرأة، إذا اغتَسَلت بعد الحيض أو النِّفاس، فهو فعل مُحدَث من قِبَل فاعله، فالمطهَّر مَن طهارتُه كانت خِلقةً؛ كالملائكة والحُور العِين، والمتطهِّر مَن فعَل الطُّهور - كالمتفقِّه، وهو مَن يُدخل نفسه في الفقه - مثل الآدميين، والآدميات، إذا تطهَّروا، والجمع بين هذين الفعلين في هذه الآية؛ للدَّلالة على اشتراطهما جميعًا قبل حلِّ إتيان النِّساء بعد الحيض، فلو حصل الطُّهرُ دون الغسل، أو الغسل دون الطُّهر، لَما جاز الجِماع. (العايد، 2004م، 118).

اهتمام علماء تفسير القرآن بالمذاهب النَّحويَّة:

علم النَّحو كغيره من العلوم تأثَّر باختلاف وجهات نظر العلماء به، ونتج عن ذلك المدارس النَّحويَّة (المذهب الكوفي، المذهب البصري،...) فلم يغفل علماء التَّفسير ما لعلم النَّحو من أثر في فهم كتاب الله المرتكز على علوم أساسيَّة منها علم النَّحو، ولم يُغفل بعض المفسِّرين التَّعرُّض لذلك.

فعلى سبيل المثال نجد إمام المفسِّرين ابن جرير الطَّبري في تفسيره (جامع البيان) يتعرَّض كثيرًا لمذاهب النَّحويين من البصريّين والكوفيّين في النَّحو والصَّرف ويوجِّه الأقوال تارة على المذهب البصري وأخرى على المذهب الكوفي، فمثلًا عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ [إبراهيم:18] يقول: «اختلف أهل العربيَّة في رافع مثل، فقال بعض نحويّي البصرة: إنَّما هو كأنَّه قال: وممَّا نقصُّ عليكم مثل الذين كفروا، ثم أقبل يفسِّره كما قال: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا كثير.

وقال بعض نحويّي الكوفيّين: إنَّما المثل للأعمال، ولكنَّ العرب تقدِّم الأسماء؛ لأنَّها أعرف، ثم تأتي بالخبر الذي تُخبر عنه مع صاحبه ومعنى الكلام: مثل أعمال الذين كفروا بربِّهم كرمادٍ... إلخ».(الطَّبري، د. ت، 131/13؛ الذَّهبي، د. ت، 156/1).

ومثله ما جاء في تفسير آيات الأحكام لمحمَّد علي السَّايس، حيث يقول عند تفسيره للأحكام

المستنبطة من قوله تعالى في سوره النِّساء: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النِّساء:26]: مثل هذا التَّركيب ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقع في كلام العرب قديمًا، ومعلوم أنه يمتنع أو يضعف دخول اللَّام على المفعول المتأخِّر عن مثله المتعدِّي، وقد خرَّجه النُّحاة على مذاهب، فمذهب سيبويه وجمهور البصريّين أنَّ مفعول (يريد) محذوف واللَّام للتَّعليل، والتَّقدير: يريد الله تحليل ما أحلَّ وتحريم ما حرَّم؛ ليبيّن لكم.

وذهب الكوفيُّون إلى أنَّ اللَّام ناصبة للفعل، وأنَّها تقوم مقام أنْ في فعل الإرادة والأمر، فيقال: أردت أنْ تذهبَ وأردت لتذهبَ وأمرتك أنْ تقوم وأمرتك لتقوم، وعليه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصَّفُّ:8] يعني: يريدون أن يُطفئوا. ومثله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:71] أي: أمرنا أن نُسلمَ، وبناءً على هذا التَّحليل يتابع تفسيره قائلًا: والمعنى: يريد الله بإنزال هذه الآيات أنْ يبيّن لكم التَّكاليف ويميّز فيها الحلال من الحرام والحسن من القبيح.(السَّايس، وآخرون، 1996م، 438/1-439).

كيف عرض مؤلِّفو كتب علوم القرآن علمَ النَّحو وبيَّنوا أهميَّته؟

كلٌّ من كتب في علوم القرآن من المتقدِّمين والمتأخِّرين أشاروا في كتبهم إلى ضرورة إتقان مفسِّر كتاب الله تعالى لعلم النَّحو والإعراب والتَّمكُّن منه والإحاطة بأسراره.(القطَّان، د. ت، ص 169 – 181).

وسنشير إلى أهمِّ عالِمَين عُرفا واشتُهرا أكثر من غيرهما في هذه التآليف في علوم القرآن، وهما الإمامان الزَّركشيُّ والسُّيوطيُّ.

سمَّى الإمام الزَّركشي هذا النَّوع في كتابه (البرهان في علوم القرآن) بـ معرفة الأحكام من جهة إفرادها وتركيبها. ومُراده بالأحكام أحكام اللُّغة المأخوذة من علم النَّحو مشيرًا إلى استخدام الإعراب في حال الإفراد والتَّركيب اعتبارًا بالتَّغيير الحاصل لأواخر الألفاظ عند دخول العوامل عليها. (الزَّركشي، 301/1 وما بعدها).

بينما نجد السُّيوطيَّ في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) قد عرض هذا النَّوع تحت اسم (في معرفه إعرابه). (السُّيوطي، 2008م، 575/1... وما بعدها).

وصدَّر كلٌّ منهما هذا العلم بذكر أهمِّ المؤلَّفات التي تقدَّمتهم في ذلك، وأشارا إلى قيمة كلِّ مؤلَّف منها.(حيدر، 1420هـ، 217-219).

ذكر الزَّركشيُّ ستَّ قواعد يجب على المُعرب مراعاتها أثناء الإعراب- والكلام كلُّه يتعلَّق بكتاب الله تعالى – وأهمُّ تلك القواعد (الزَّركشي، 301/1 وما بعدها، 23/4 وما بعدها):

- الفرق بين تفسير المعنى وتفسير الإعراب:

تفسير المعنى: بيان المعنى المعجمي للكلمة المفردة والمعنى الدَّلالي المحتاج لقرائن، وتفسير

الإعراب: يبيّن المعنى الوظيفي للكلمة بحسب موقعها في الجملة كمبتدأ أو خبر أو فاعل أو مفعول به... وهكذا. (المليفي، 1439هـ، 24).

– تجاذب الإعراب والمعنى الشيءُ الواحدُ: بأن يكون تفسير المعنى مخالفًا لتقدير الإعراب.(المليفي، 1439هـ، 24).

– يجب على النَّحوي بيان مراتب الكلام من حيث صناعة الإعراب.

أما السُّيوطيُّ فقد أخذ هذه القواعد، وزاد عليها في كتابه (الإتقان) أنَّ أوَّل واجب على النَّاظر في كتاب الله المفسِّر له:

أنْ يفهم معنى ما يريد أن يُعربه مفردًا كان أو مركَّبًا قبل الإعراب، فإنَّه فرع المعنى، ولهذا لا يجوز عنده إعراب فواتح السُّور إذا قلنا بأنَّها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

أن يراعي ما تقتضيه الصِّناعة، فربَّما راعى المُعرب وجهًا صحيحًا، ولا ينظر في صحَّته في الصِّناعة فيُخطئ.

– أن يكون ملمًّا بالعربيَّة؛ لئلا يخرِّج على ما لم يثبت.

– أن يتجنَّب الأمور البعيدة والأوجه الضَّعيفة واللُّغات الشَّاذَّة، ويخرِّج على القريب والقويِّ والفصيح.(السُّيوطي، 2008م، 1/576–578 ؛ مليحي، وآخرون، د. ت، 108).

* * *

المبحث الثَّالث

الأمثلة التَّطبيقيَّة لأثر علم النَّحو في فهم معاني القرآن العظيم

لا سبيلَ إلى معرفة إعجاز القرآن العظيم، والوقوف على ذلك، إلا عن طريق معرفة لُغة العرب، ومعرفةِ ما كان عليه العرب الذين نزل القرآنُ في زمنهم من الفصاحة والبيان واللَّسَن، ومَن لم تكن له بذلك درايةٌ، ولا له عليه إقبالٌ، فشأنُه شأن الأعجميّ الذي يعرِفُ الإعجاز في القرآن مِن عجز العرب الأقدمين عن الإتيان بمثله.

بجاذبيَّةِ القرآن انضَوى أهل جزيرة العرب إلى الإسلام؛ لِمَا كان لهم من دقَّة الفَهم، التي كانت سببَ الانجذاب إلى الحقّ.

لقد كان البدويُّ راعي الغنم يسمع القرآن فيخرُّ ساجدًا؛ لِمَا عنده من رقَّة الإحساس ولطف الشُّعور، فقد ورد أن أعرابيًّا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:9]، فما كان من الأعرابي إلا أن سجد، وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام.

وهذه بعض الأمثلة التي يتبيَّن من خلالها أثر علم النَّحو في فهم معاني آيات القرآن العظيم:

المثال الأوَّل:

سبق توضيح أنه من الثَّابت أنَّ اللِّسان العربي الذي نزل القرآن الكريم به، له نظام قواعديٌّ هو الذي يضبط المعنى المراد من الكلام، ويدل عليه، فهل إذا حصل تقديم أو تأخير في ترتيب الجملة يتغيَّر المعنى؟ وكيف ضبط النِّظام اللِّسانيُّ المعنى المرادَ رغم ذلك التَّغيير؟

فهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28].

إنَّ المعنى يختلف بتغيُّر حركة الكلمة (الإعراب) فلو قلنا: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) برفع لفظ الجلالة فيكون فاعلًا لفعل الخشية ونصب العلماء على المفعوليَّة لكان المعنى مختلفًا وفاسدًا، وكان كفرًا، والعياذ بالله تعالى، والذي عَصَمَ من هذا الفَهم الخاطئِ هو علمُ النَّحوِ الذي ضَبَطَ لفظ الفاعل والمفعول بحركةٍ خاصَّة بالفاعل والمفعول به.(النَّسفي، 1989م، 1424/3-1425؛ الرَّازي، د. ت، 407/2).

المثال الثاني:

وكذلك نجد النِّظام القواعديَّ هو الذي يضبط المعنى المراد من الكلام، عند تغيُّر الحركة الإعرابيَّة أو الصَّرفيَّة للكلمة واللَّفظ.

انظر إلى حركة حرف الخاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد:3] ولزوم قراءتها بالكسر، ولو فُتحت لأدَّت معنًى فاسدًا، وهو تعدُّد الآلهة؛ إذ الآخَر بفتح الخاء هو الثَّاني أو الثَّالث...إلخ، ومثله كسر الواو في لفظ المصوِّر من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24] إذ بفتحها يكون المعنى فاسدًا حينئذٍ، فيكون المصوَّر المخلوق، والعياذ بالله تعالى.

المثال الثَّالث:

إنَّ العلم بالفَرق ما بين الحروف والأدوات من حيث المعنى هو الذي يعصمُ الفهمَ من الوقوع في الكفر المترتِّب على الخطأ في فهم كتاب الله تعالى (الزَّركشي، 301/1 وما بعدها)، ومن هنا نشأ علم النَّحو كعلم خادم للقرآن الكريم، ووجدت آلاف الكتب التي تبحث في نحو القرآن ولغته، وقد ذكرنا في المبحث السَّابق نخبةً من كتب النَّحو قديمًا وحديثًا نتيجة اعتماد المفسرين على هذا العلم.(السَّامرائي، 2002م، 9/1).

ولذا فإنَّ عدمَ العلم بالفَرق بين (بَلَى) وهي حرف إيجابٍ للكلام المنفيّ، و(نَعَمْ) الموضوعة لرفع الاستفهام وتثبيت النَّفي. ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:172] لو قالوا: نعم لكفروا؛ لأن التَّقدير يكون حينئذٍ: (نَعَمْ لَسْتَ ربَّنا) والعياذ بالله تعالى. والدَّليل على إيمانهم وشهادتهم قولُهُم: (بَلَى) التي معناها رفع النَّفي وتقدير الجواب عندها يكون: بَلَى أنت ربُّنا.(ابن عادل، د. ت، 377/9؛ الزُّحيلي، 1418هـ، 158/9؛ صافي، 1418هـ، 268/28).

المثال الرابع:

يذهب علماء النَّحو إلى أن الأصل في حروف الجرّ أنَّ لكلِّ حرف منها مكان يحلُّه، ومعنى يؤدِّيه حين تركيبه مع غيره من الأسماء والأفعال؛ لأنَّ الحرف بصفة عامَّة هو ما دلَّ على معنًى في غيره، فهل هذا على إطلاقه دون أن يكون للمعنى الفصل في المعنى الحقيقي له؟

انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:4-5] فقد اختلف المفسِّرون في المصلِّين الذين توجَّه إليهم الوعيد بالوَيل هنا، والجمهور على أنَّهم الذين يسهون عن أدائها، ويتساهلون في أمر المحافظة عليها، وقيل: عن الخشوع فيها وتدبُّر معانيها، ولو قال الله تعالى: (في صَلاتِهِمْ) لم ينج أحدٌ من الويل، وقد فهم ذلك عطاء وابن عبَّاس رضي الله عنهما، فقالا: الحمد لله الذي قال: عَنْ صَلاتِهِمْ، ولم يقل: في صَلاَتِهم (القرطبي، د.ت، 512/22؛ ابن جُزيّ، 1995م، 615/2؛ الزَّمخشري، 1998م، 441/6-442).كما أن السَّهو في الصَّلاة لم يسلمْ منه أحدٌ حتى أنَّه وقع من النَّبي صلى الله عليه وسلم، لمَّا سلَّم من ركعتين في الظُّهر. [الحديث متَّفق عليه: البخاري في كتاب السَّهو، باب يكبِّر في سجدتي السَّهو، برقم 1229؛ ومسلم، باب السَّهو في الصَّلاة، برقم 573].

فمن هنا نشأ مذهبان في هذه المسألة، حيث ذهب الكوفيُّون إلى أنَّ العرب تتوسَّع في الحروف، فتُقيم بعضها مقام بعضٍ إذا تقاربت المعاني، بينما ذهب البصريُّون إلى أنَّ حروف الجرّ لا ينوب بعضها عن بعض.

ومن خلال مثال الآية الكريمة التي أوردناها يترجَّح أن يكون مذهبُ البصريّين هو الأقوى

في دَلالة الألفاظ على معانيها.

المثال الخامس:

وبناءً على اختلاف النُّحاة في إعراب الباء الجارَّة، التي تحتمل أكثر من معنى، فقد اختلف الفقهاء في إعراب الباء من قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة:6] فقيل: للإلصاق، وقيل: للتَّبعيض، وقيل: زائدة، وقيل: للاستعانة، وإنَّ في الكلام حذفًا وقلبًا، فإنَّ (مَسَحَ) يتعدَّى إلى المُزال عنه بنفسه، وإلى المُزيل بالباء، فالأصل: (امسحوا رؤوسَكم) بالماء.(السُّيوطي، 2008م، 505/1).

وبناءً على اختلافهم في إعراب هذه الباء الجارَّة اختلفوا في مقدار المسح، فقال المالكيَّة والحنابلة: يجب مسح الكلِّ أخذًا بالاحتياط؛ لأن الباء كما تكون أصليةً تكون زائدةً لتقوية تعلُّق العامل بالمعمول، واعتبارها هنا زائدة أولى؛ لأنَّ التركيب حينئذٍ يدلُّ على وجوب مسح كلِّ الرَّأس، والبعض داخل فيه، فيكون ماسح الكلِّ آتيًا بالفرض بيقين.

وقال الشَّافعيَّة: إنَّ هذه الأدوات التي منها الباء موضوعة للدَّلالة على معانٍ منها التَّبعيض، فمتى أمكن استعمالها دالَّة على هذه المعاني وجب استعمالها على هذا النَّحو. فيكفي مسح أقلِّ ما يطلق عليه اسم المسح أخذًا باليقين. وقال الحنفية: يفترض مسح ربع الرأس. فإنَّها للإلصاق. (السَّايس، وآخرون، 1996م، 2/ 564-565).

المثال السَّادس:

اختلف النَّحويُّون في جواز العطف على الضَّمير المجرور من غير إعادة الجارّ، فجمهور البصريّين على المنع، وبعضهم والكوفيُّون على الجواز، وخُرِّجتْ عليه قراءةُ حمزة:﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النِّساء:1].(السُّيوطي، 2008م، 638/1)، فقرأ حمزة (وَالْأَرْحامِ) بكسر الميم، وخرِّجت في المشهور على العطف على الضَّمير المجرور، والعطف على الضَّمير المجرور دون إعادة الجارّ أجازه جماعة من النُّحاة. (السَّايس، وآخرون، 1996م، 2/ 353)، وأنشد سيبويه في ذلك:

فـاليوم قـد بـتَّ تهجُونـا وتشـتُمنـا فـاذهـبْ فـمـا بـكَ والأيـامِ مـن عـجـبٍ

المثال السَّابع:

سبق القول أن تفسير المعنى – عند النَّحويّين – هو بيان المعنى المعجمي للكلمة المفردة، وتفسير الإعراب يبيّن المعنى الوظيفيّ للكلمة بحسب موقعها في الجملة كمبتدأ أو فاعل، أو كونه زائدًا...إلخ. فإذا تعارض الإعراب والمعنى فقد يؤدّي إلى الاختلاف في النَّتيجة، فعلى سبيل المثال، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [النِّساء:22].

فرغم أنَّ (كان) في هذه الآية تقتضي الدَّوام، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 23]، ولا تدلُّ على الماضي فقط؛ لأنَّ معناها هنا معنى (لم يَزَلْ)، فقد حَمَل هذا المعنى أبا العباس المبرِّدَ على القول بأنَّها زائدة، وذلك خطأ لوجود خبرها منصوبًا؛ إذ الزائدة لا خبر لها.(ابن جُزيّ، 1995م،182/1؛ السَّمين الحلبي، د. ت، 638/3؛ السَّايس، وآخرون، 1996م، 413/2).

قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: قال أبو العباس المبرِّد: (كان) هاهنا زائدة، والمعنى: أنه فاحشة: وأنشد:

فكيفَ إذا رأيتَ ديارَ قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ

وهذا خطأ، فـ (كان) يستعمل كثيرًا بمعنى لم يزل، فالمعنى: أنَّ نكاح امرأة الأب–التي هي بمنزلة الأم – بعد موته لم يزل فاحشة، بل هو متَّصف بالفحش في الماضي والحال والمستقبل، فالفحش وصفٌ لازم له، و(كان) هنا ليست زائدة، ولكنَّها منسلخةٌ عن خصوص الماضي، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: 96].

ولأنَّ تعارض تفسير الإعراب مع تفسير المعنى هو السَّبب الحامل له – المبرِّد – على الذَّهاب إلى هذا الرَّأي، فينبغي أن يُتأوَّل كلامه على أنَّ (كان) لا يُراد بها تقييد الخبر بالزَّمن الماضي فقط، فجعلها زائدةً بهذا الاعتبار.(ابن جُزيّ، 1995م،182/1؛ السَّمين الحلبي، د. ت، 638/3؛ السَّايس، وآخرون، 1996م، 413/2).

* * *

الخاتمة

من خلال الدِّراســة النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة لعلم النَّحو وأثره في تفســير القرآن العظيم، نذكر نتائج البحث وخلاصته:

1 - النَّحو في بدايته لم يكن علمًا قائمًا بذاته، ولم يُعرف بمنهج معيَّن، ولكنَّه خضع للتَّطوُّر مثل كلِّ العلوم التي يحتاج إليها البشر. واستنبطه العلماء من استقراء كلام العرب.

2 - النِّظام النَّحوي هو أحد أنظمة اللُّغة العربيَّة الفُصحى.

3 - أوَّل من وضع أصول النَّحو وتكلَّم فيه أبو الأسود الدُّؤليُّ بطلب من سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وأوَّل من فصَّل في أحكامه وأظهر عِلَلَه وقياسَه هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميُّ.

4 - يُعدُّ علم النَّحو أداةً بارزةً في فهم القارئ للآيات القرآنيَّة.

5 - أجمع علماء الشَّريعة على أن تعلُّم النَّحو العربي شرط أساسيٌّ لكلِّ باحث في أي علم شرعيٍّ، ولا سيَّما علم التَّفسير فهو علم تطبيقيٌّ، لا نظريٌّ.

6 - ممَّا يدلُّ على أهميَّةِ علم النَّحو وأثرِهِ في فهم القرآن العظيم قيام كثير من العلماء بالتَّأليف في إعراب القرآن الكريم في العصور المتقدِّمة، وفي العصر الحديث.

7 - لاختلاف المفسِّرين والنَّحويين أثر كبير في فهم القرآن وإعرابه وتفسيره؛ مما ترتَّب عليه الاختلاف في التَّفسير، وتعدُّد الأقوال المستنبطة من الآيات، ولا سيَّما آيات الأحكام.

وأخيرًا، فهذا جُهدُ المقلِّ، ولا أدَّعي أني أعطيت البحث حقَّه، ولكنِّي بذلت ما بوسـعي في حدود علمي وفهمي، فما كان من صـواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسـي والشَّـيطان، واللهُ ورسولُه منه بريئان، وأستغفر اللهَ وأتوب إليه، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: عام:

ابن الأنباري، أبو البركات إبراهيم، (د. ت)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، (د. ط)، القاهرة، دار نهضة مصر.

ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، (1415هـ-1995م)، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (د. ت)، الخصائص، ط2، بيروت، دار الهدى.

ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، (1425هـ-2004م)، مقدمة ابن خلدون، ط1، دمشق، دار البلخي.

ابن دريد، أبو بكر محمّد بن الحسن الأزديّ، (د. ت)، الجمهرة في اللغة، (د. ط)، القاهرة، مؤسسة الحلبيّ.

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، (د. ت)، تفسير اللباب، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن قاسم، عبدالرحمن بن محمد، (1408هـ - 1988م)، حاشية الآجرومية، ط4، (د. ن).

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (د. ت)، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر

الإستانبولي، صدر الدين الكنغراوي، (د. ت)، الموفي في النَّحو الكوفي، (د. ط)، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الشريف (1405هـ)، التعريفات، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي.

جمال الدين، د. مصطفى، (1980م). البحث النَّحوي عند الأصوليين، (د. ط)، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات (228).

الحافظ، ياسين، (1431هـ-2010م)، إتحاف الطرف في علم الصرف، ط 1، دمشق، دار العصماء.

حسان، د. تمام، (1973م)، اللغة العربية معناها ومبناها، (د. ط)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حقي، د. محمد صفاء شيخ إبراهيم، (1425هـ-2004م)، علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

حيدر، د. حازم سعيد، (1420هـ)، علوم القرآن بين البرهان والإتقان دراسة مقارنة، (د. ط)، المدينة المنورة، مكتبة دار الزمان.

درويش، د. شوكت علي عبد الرحمن، (1429هـ- 2008 م)، الالتفات نحويًّا في القراءات القرآنية، (د. ط)، عمان، منشورات أمانة.

الدرويش، محيي الدين، (1420هـ، 1999م)، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط 7، دمشق- بيروت، دار اليمامة، دار ابن كثير.

الذهبي، د. محمد حسين، (د. ت)، التفسير والمفسرون، (د. ط)، القاهرة، مكتبة وهبة.

الرازي، محمد بن عمر فخر الدين، (د. ت)، مفاتيح الغيب، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

رضا، محمد رشيد بن علي، (1990م)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، (د. ط)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

زبن، عماد، (د. ت)، أبو السعود ومنهجه في النَّحو من خلال تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم(د. ط)، (د. ن).

الزحيلي، د. وهبة بن مصطفى، (1418هـ)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (د.ت)، البرهان في علوم القرآن، (د. ط)، القاهرة، مكتبة دار التراث.

الزركلي، خير الدين بن محمود، (2002 م)، الأعلام، ط 15، بيروت، دار العلم للملايين.

الزعبلاوي، صلاح الدين، (د. ت)، دراسات في النَّحو، (د. ط)، دمشق، (د. ن).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (1418هـ-1998م)، الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان.

السامرائي، د. فاضل صالح، (1423هـ-2002م) على طريق التفسير البياني، (د. ط)، الإمارات العربية المتحدة، جامعة الشارقة.

السايس، محمد علي، وآخرون، (1417هـ-1996م)، تفسير آيات الأحكام، ط2، دمشق- بيروت، دار ابن كثير، دار القادري.

السَّمين الحلبي، أحمد بن يوسف، (د. ت)، الدُّرُّ المصون في علم الكتاب المكنون، (د. ط)، دمشق، دار القلم.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (1429هـ-2008م)، الإتقان في علوم القرآن، ط1، دمشق، دار المصطفى.

الشوا، د. أيمن، (1995م)، إعراب القرآن الكريم من مغني اللبيب، ط1، دمشق- بيروت، دار ابن كثير.

الصابوني، محمد علي، (1414هـ-1994م)، صفوة التفاسير، ط1، حلب، دار القلم العربي.

صافي، محمود بن عبد الرحيم، (1418 هـ)، الجدول في إعراب القرآن، ط 4، دمشق، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان .

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (د. ت)، جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، مصر، دار هجر .

الطنطاوي، محمد، (د.ت). نشأة النَّحو، ط2، القاهرة، دار المعارف.

العايد، د. صالح بن حسين، (1425هـ-2004م)، نظرات لغوية في القرآن الكريم، ط3، الرياض، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع.

القرطبي، أبو عبد الله، (1427هـ-2006م)، الجامع لأحكام القرآن، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

القطان، مناع، (د. ت)، مباحث في علوم القرآن، (د. ط)، جدة، الدار السعودية للنشر.

القفطيّ، أبو الحسن علي بن يوسف، (1401هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، (د. ط)، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

المرادي، أبو محمد بدر الدين المصري المالكي، (1428هـ-2008م)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي.

مليحي، د. محمد محمد ديب، و الحمصي، د. أسامة زهير، (د. ت)، علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، (د. ط)، دمشق، معهد الشام العالي للعلوم الشرعية.

المليفي، د. خالد بن سليمان بن عبد العزيز، (1439هـ)، تفسير المعنى وتفسير الإعراب، دراسة نحوية تحليلية تطبيقية في القرآن الكريم، ع 48، رجب (د. ط)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مجلة العلوم العربية.

النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، (1408هـ- 1989م)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ط1، بيروت، دار القلم.

* * *

Index of sources and references

First: The Holy Qur'an.

Second: General:

Ibn Al-Anbari, Abu Al-Barakat Ibrahim, (ed.), Nuzhat Al-Alba fi Classes of Writers, (ed.), Cairo, Dar Nahdet Misr.

Ibn Jazi, Abu Al-Qasim Muhammad bin Ahmed Al-Kalbi, (1415 AH - 1995 AD), Al-Tasheel for the Sciences of Revelation, 1st edition, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

Ibn Jinni, Abu Al-Fath Othman, (ed.), Al-Khasa'is, 2nd edition, Beirut, Dar Al-Huda.

Ibn Khaldun, Wali al-Din Abd al-Rahman bin Muhammad, (1425 AH - 2004 AD), Introduction to Ibn Khaldun, 1st edition, Damascus, Dar al-Balkhi.

Ibn Duraid, Abu Bakr Muhammad bin Al-Hasan Al-Azdi, (ed.), Al-Jamhara fi Al-Lughah, (ed.), Cairo, Al-Halabi Foundation.

Ibn Adel, Abu Hafs Omar bin Ali al-Dimashqi al-Hanbali, (ed. T), Tafsir al-Lubab, (ed. i.), Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Ibn Qasim, Abdul Rahman bin Muhammad, (1408 AH - 1988 AD), Hashiyat al-Ajrumiyah, 4th edition, (d. n.(

Ibn Manzur, Muhammad bin Makram bin Ali, (d.), Lisan al-Arab, 1st edition, Beirut, Dar Sader

Al-Istanbouli, Sadr al-Din al-Kanjarawi, (d. T.), Al-Mawfi fi Kufi Grammar, (D. T.), Damascus, Publications of the Arab Scientific Academy.

Al-Jurjani, Ali bin Muhammad bin Ali Al-Sharif (1405 AH), Definitions, 1st edition, Beirut, Dar Al-Kitab Al-Arabi.

Jamal Al-Din, Dr. Mustafa, (1980 AD). Grammatical Research among Fundamentalists, (Dr. I), Republic of Iraq, Al-Rasheed Publishing House, Publications of the Ministry of Culture and Information, Studies Series (228(

Al-Hafiz, Yassin, (1431 AH - 2010 AD), Ithaf al-Tarf fi Ilm al-Marf, 1st edition, Damascus, Dar al-Asmaa.

Hassan, Dr. Tammam, (1973 AD), The Arabic Language, Its Meaning and Structure, (ed.), Cairo, Egyptian General Book Authority.

Haqqi, Dr. Muhammad Safaa Sheikh Ibrahim, (1425 AH - 2004 AD), Qur'anic Sciences through Introductions to Interpretations, 1st edition, Beirut, Al-Resala Foundation.

Haider, Dr. Hazem Saeed, (1420 AH), Qur'anic Sciences between Proof and

Perfection, A Comparative Study, (Dr. I), Medina, Dar Al-Zaman Library.

Darwish, Dr. Shawkat Ali Abdul Rahman, (1429 AH - 2008 AD), Grammatical Attention in Qur'anic Readings, (ed.), Amman, Amana Publications.

Al-Darwish, Muhyiddin, (1420 AH, 1999 AD), The Parsing and Explanation of the Holy Qur'an, 7th edition, Damascus-Beirut, Dar Al-Yamamah, Dar Ibn Katheer.

Al-Dhahabi, Dr. Muhammad Hussein, (D. T.), Tafsir wal-Mufassirun, (D. T.), Cairo, Wahba Library.

Al-Razi, Muhammad bin Omar Fakhr al-Din, (ed.), Keys to the Unseen, (ed.), Beirut, Dar Revival of Arab Heritage.

Reda, Muhammad Rashid bin Ali, (1990), Interpretation of the Wise Qur'an (Tafsir Al-Manar), (ed. edition), Cairo, Egyptian General Book Authority.

Zabin, Imad, (D. T.), Abu Al-Saud and his approach to grammar through his interpretation of guiding the sound mind to the merits of the Holy Qur'an (D. I), (D. N.(

Al-Zuhaili, Dr. Wahba bin Mustafa, (1418 AH), Al-Tafsir Al-Munir fi Al-Aqeedah, Sharia and Methodology, 2nd edition, Damascus, Dar Al-Fikr Al-Mu'astam.

Al-Zarkashi, Badr al-Din Muhammad bin Abdullah, (D. T.), Al-Burhan fi Ulum al-Qur'an, (D. T.), Cairo, Dar al-Turath Library.

Al-Zirakli, Khair al-Din Bin Mahmoud, (2002), Al-A'lam, 15th edition, Beirut, Dar Al-Ilm Lil-Millain.

Al-Zaabalawi, Salah al-Din, (D. T.), Studies in Grammar, (D. T.), Damascus, (D. N.(.

Al-Zamakhshari, Abu Al-Qasim Mahmoud bin Omar, (1418 AH - 1998 AD), Al-Kashfah fi Mysteries of Revelation and the Eyes of Sayings in the Faces of Interpretation, 1st edition, Riyadh, Obeikan Library.

Al-Samarrai, Dr. Fadel Saleh, (1423 AH - 2002 AD) On the Path of Graphic Interpretation, (Dr. I), United Arab Emirates, University of Sharjah.

Al-Sais, Muhammad Ali, and others, (1417 AH - 1996 AD), Interpretation of the Verses of Ahkam, 2nd edition, Damascus - Beirut, Dar Ibn Kathir, Dar Al-Qadri.

Al-Samin Al-Halabi, Ahmed bin Yusuf, (ed.), Al-Durr Al-Masun fi Ilm Al-Kitab Al-Maknoun, (ed.), Damascus, Dar Al-Qalam.

Al-Suyuti, Jalal al-Din Abd al-Rahman, (1429 AH - 2008 AD), al-Itqan fi Ulum al-Qur'an, 1st edition, Damascus, Dar al-Mustafa.

Shawa, Dr. Ayman, (1995), The Parsing of the Holy Qur'an from Mughni al-Labib, 1st edition, Damascus-Beirut, Dar Ibn Katheer.

Al-Sabouni, Muhammad Ali, (1414 AH - 1994 AD), Safwat al-Tafsir, 1st edition, Aleppo, Dar Al-Qalam Al-Arabi.

Safi, Mahmoud bin Abdul Rahim, (1418 AH), Table in the Parsing of the Qur'an, 4th edition, Damascus, Dar Al-Rashid, Al-Iman Foundation.

Al-Tabari, Abu Jaafar Muhammad bin Jarir, (d.), Jami' al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an, 1st edition, Egypt, Dar Hijr.

Al-Tantawi, Muhammad, (d. T.). The Genesis of Grammar, 2nd edition, Cairo, Dar Al-Maaref.

Al-Ayed, Dr. Saleh bin Hussein, (1425 AH - 2004 AD), Linguistic Looks at the Holy Qur'an, 3rd edition, Riyadh, Treasures of Seville for Publishing and Distribution.

Al-Qurtubi, Abu Abdullah, (1427 AH - 2006 AD), Al-Jami' Li Ahkam Al-Qur'an, 1st edition, Beirut, Al-Resala Foundation.

Al-Qattan, Manna, (D. T.), Investigations in the Sciences of the Qur'an, (D. T.), Jeddah, Saudi Publishing House.

Al-Qafti, Abu Al-Hasan Ali bin Yusuf, (1401 AH), The Narrators Attention, Grammarians Attention, (ed.), Cairo, Egyptian General Book Authority.

Al-Muradi, Abu Muhammad Badr al-Din al-Masri al-Maliki, (1428 AH - 2008 AD), Clarifying the Objectives and Paths Bi Sharh Alfiyyah Ibn Malik, 1st edition, Cairo, Dar al-Fikr al-Arabi.

Melehi, Dr. Muhammad Muhammad Deeb, and Al-Homsi, Dr. Osama Zuhair, (Dr. T), Sciences of the Holy Qur'an and the Noble Prophet's Hadith, (Dr. T), Damascus, Al-Sham Higher Institute for Sharia Sciences.

Al-Mulaifi, Dr. Khalid bin Suleiman bin Abdul Aziz, (1439 AH), Interpretation of Meaning and Interpretation of Parsing, An Applied Analytical Grammatical Study in the Holy Qur'an, No. 48, Rajab (Dr. I), Imam Muhammad bin Saud Islamic University, Arab Science Journal.

Al-Nasafi, Abdullah bin Ahmed bin Mahmoud, (1408 AH - 1989 AD), Medics of Revelation and Facts of Interpretation, 1st edition, Beirut, Dar Al-Qalam.